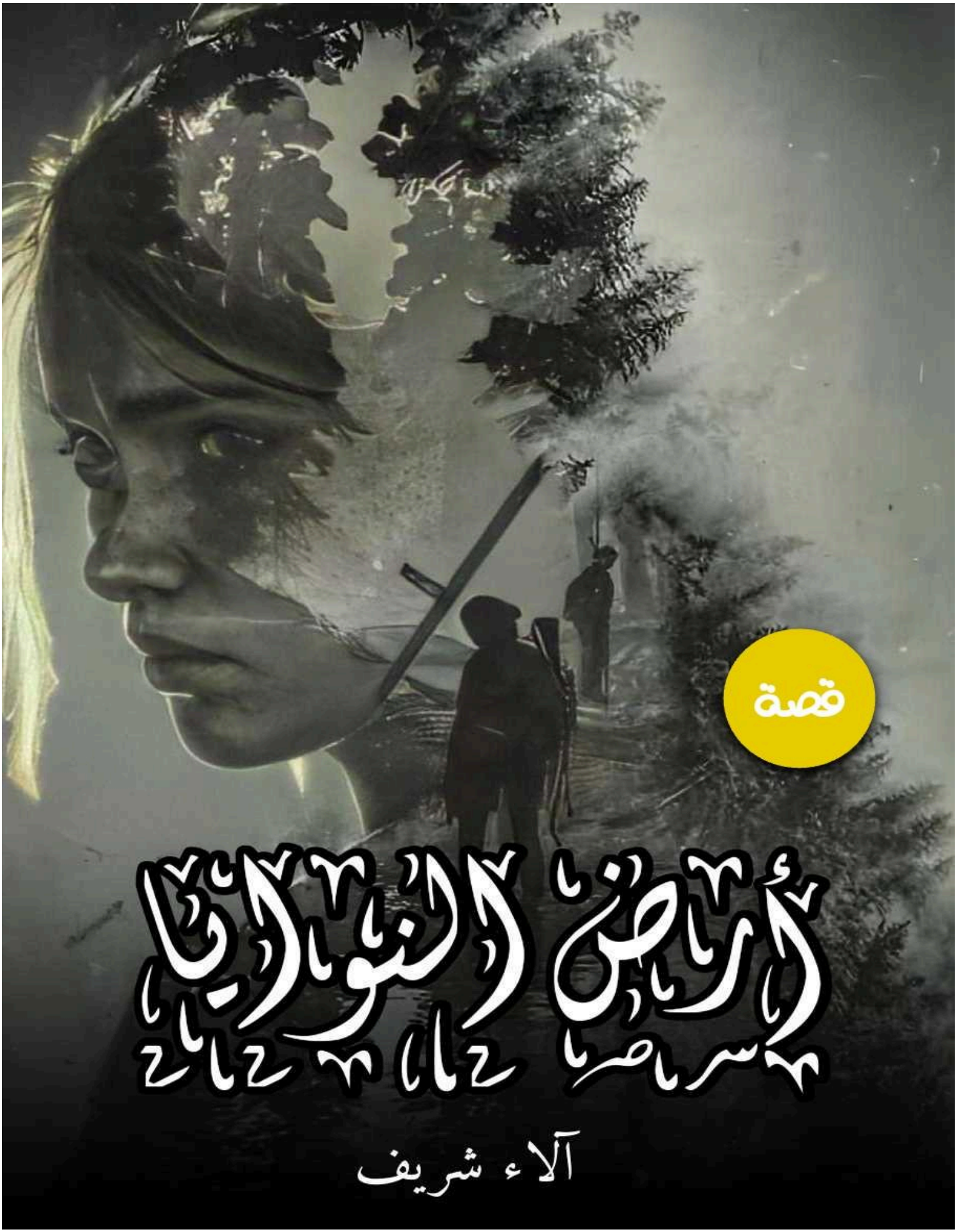

قصة
أرض النوايا
آلاء شريف

أرض النوايا

المقدمة

نسير في دروب شيّقة ومختلفة من حياتنا، إما أن تجعلنا أشخاص نعيش مرارة الفقد بخيباتهُ المؤلمة، وإما أن تجعلنا واعين وقادرين على التفرقة بين "نوايا" مَن حولنا.

"طفولة قاسية" جملة قد تكون للوهلة الأولى عادية للبعض، ولكنها مُحملة بالكثير من المعاني المُرهقة، ما فائدة أن تكون طفلًا مُحملًا بالمسؤوليات ولكنها لا تنتمي أبدًا لطفولتكَ؟!

****

بتول

أعيش في منزل بسيط برفقة أمي وجدتي، في قرية كبيرة بإحدى المُحافظات الريفية، وبالرغم من كبرها إلا أنها مُكتظة بالسُكان بشكل كبير، وتكثُر عليها الأقاويل بوجود أرض مُخيفة بها، مَن يذهب إليها لا يعود سالمًا أبدًا..

كنتُ في السابعة من عمري حين اصطحبتني أمي لحضوري لأول يوم لي في مدرستي "سميرة موسى"، لم أكن من أولئِكَ الأطفال الذين يحبون اللهو أبدًا، كنت طفلة مهتمة بتعلُّم أي شيء جديد وشغوفة بتعلم كل ما هو مُثير للتطلع إليه.. ولهذا فكان لدي حب الاستكشاف والتطلُّع مُنذُ الصغر.

جلستُ في الصف بجانب زميلاتي الجُدد وحاولتُ تكوين صداقات معهم مثلما وصتني أمي، وبالفعل تعرفتُ على صديقتاي سلمى ومريم، وأصبحنا صديقات مُقربات جدًا، ومن ثم تحدثنا في أمورٍ مُختلفة، فتسائلت إحداهن:

- هل تحبون الرسم؟

ردت كلتيهما بالإيجاب، فشعرتُ أننا نتشارك نفس الأنشطة المُفضلة، ولكن كان يجتاحني شعور يقلقني تجاههما..

عدتُ لمنزلي برفقة أمي في جو يتخللهُ الكثير من المرح والعبارات التحفيزية، وحين وصلتُ، انتشلتني جدتي بأحضانِها ثم قالت بلطفٍ شديد:

- مَن أصبحت تداوم بالمدرسة الآن؟ وفقكِ الله ياصغيرتي.

ثم ذهبتُ لتبديل ملابسي لمساعدة أمي في تحضير وجبة الغداء، لكني لاحظتُ شيئًا غريبًا على أمي، فقد رأيتُها تخفي دموعها وجدتي تمطرها بعبارات مواساة فقلتُ بتساؤل:

- مابكِ يا أمي؟ لماذا يبدو عليكِ الحزن؟

ردت وهي تبتلع غصه شكلت حلقها:

- لا شيء يا بُندقتي، أنا بخير حسنًا؟

قلت:

- حسنًا.

تناولنا الغداء وكان بالي مشغولًا ببكاء أمي، فشعرتُ بأن هناك خطبٌ ما ولكن لا أدري ما هو، انتظرتُ حتى ذهبت أمي للخلود إلى النوم، ثم دلفت لغرفة جدتي فاستمعتُ لها دون قصدٍ مني وهي تتحدث بالهاتف بعصبية مُفرطة:

- كيف لكَ أن تتخلى عن ابنتك ومصاريفها بهذا الشكل!

كيف لكَ بأن تكون بكل هذا الجحود!

ثم أغلقت هاتفها وأمسكت برأسِها، وهي تشعر بألمٍ شديد، وتمتمت بكلماتٍ غير مفهومة فقلتُ لها باستغراب:

- ما بكِ جدتي، وما بها أمي؟!

ارتبكت قليلًا، ثم أجابتني:

- ليس بي شيءٌ يا صغيرتي، ألم تنامي بعد؟

قلتُ لها بعينين ناعستين تقاومان النوم:

- لا، كنتُ أود التحدث معكِ بشأن أمي، لأنني رأيتُها وهي تبكي.

حملتني جدتي بأحضانِها إلى سريرها وقالت بهدوء:

- لا تُشغلي بالك بهذه الأمور ياصغيرتي، لنتحدث في الصباح الباكر حسنًا؟

رددت:

- حسنًا.

كم هي صعبة تلك الليالي التي تشعُر فيها بأنك تُشكّل عبئًا كبيرًا على الجميع، تظل كملفٍ مركونٍ داخل عقلي لا يُقرأ، وإنما تأكلهُ كثرة التفكير فيهِ..

داومتُ في اليوم التالي بمدرستي وكان عقلي مازال يُفكر، كنتُ أتساءل كيف لي ألا أُشعر أحدًا بأني عبءٌ ثقيلٌ عليه؟!

فكرتُ أن أُساعد أمي في عمل "حرفة السجاد اليدوي" وكأنني أُريد تعلم هذه الحرفة، ولكني في الحقيقة مُضطرة، حتى أستطيع التخفيف عنها ولو قليلًا.

لاحظت مُعلمتي "مُعلمة التدبير المنزلي" شرودي بين الحين والآخر وعبثي بالقلم، ثم تساءلت باستغراب:

- هل أنتِ بخير يا صغيرة؟ بماذا تفكرين؟

أفقتُ من شرودي وأجبتها:

- نعم بخير، أُفكر كيف لي أن أُساعد أمي، وألا أراها حزينة أبدًا.

فأخذتني المُعلمة جانبًا ثم تبسمت لي وقالت:

- لاحظتُ أنكِ فتاة مميزة وذكية جدًا البارحة، بارك الله بكِ، لاشيء يُعادل فرحة الأم بنجاح أطفالِها دائمًا، لذا فعليكِ أن تتخذي من طريقك نجاحًا باهرًا يتحدث عنهُ الجميع.

شكرتُ مُعلمتي، وعدتُ لمنزلي فكان بجانب مدرستي برفقة سلمى ومريم، عازمةً أن أكون سندًا لأمي ولجدتي بعد الله.

بعد مرور أحد عشر عامًا

كانت أيامي متتابعة ومتتالية إلى حدٍ كبير، وكأنها نُسِخت وطُبِعت لأكثر من كتاب، ففي بداية كل يوم تنتهي رحلة نومي باختراق أذان الفجر لأذني مُعلنًا بداية يومٍ جديد.. يومًا روتينيًا عاديًا جدًا بالنسبة لي.

أستيقظتُ على مسامع أذان الفجر، ثم أديتُ فريضتي وتوجهت لاستكمال دراستي والأبحاث المطلوبة مني ومساعدة أصدقائي بها، ثم مررتُ على أمي باستعجال وقلتُ:

- أمي، هل تُريدين شيئًا مني؟

ردت أمي بتذكر:

- نعم، عليكِ أن تمُري على مصنع النسيج، ولكن كما حذرتُكِ لا تُطيلي بالانتظار في هذا المكان كثيرًا، ولا بالمكان المُقابل له.

قالت آخر جملة بحذرٍ شديد، فهززتُ رأسي باستغرابٍ وقلتُ:

- أوامركِ يا أمي، ولكن لماذا في كل مرة أذهب للمصنع فيها تُحذريني من المكان المُقابل له؟

ردت أمي بغيظ مُضحك:

- ألا تُجيدين فعل أي شيء بدون السؤال عنهُ؟!

ضحكتُ لها ثم أردفتُ:

- بالطبع، ألا يستوجب عليّ فهم ما أفعل حتى أفعلهُ بإتقان؟ كما تعرفيني أعمل كل شيء بإتقانٍ تام.

ردت أمي بقهقه:

- على يدي.

ثم تجهزتُ للذهاب للجامعة، ومررتُ على كلٍ مِن سلمى ومريم، فكلتاهما ي تدرسان بنفس كلية الصيدلة التي أنا بها، وبعدما انتهيتُ من تسليم الأبحاث سألتُ مريم وسلمى:

- ما رأيكم بالبحث الخاص بي؟

ردت مريم بتشجيع مصطنع:

- رائعٌ يا صديقتي، أنتِ لا تفعلين أي شيء سوى أن يكون رائعًا.

ثم أيدتها سلمى وقالت لي الكثير من العبارات التحفيزية، وأنهما فخورتَين بي دائمًا.

- أتعلمون يا فتياتي، أشعُر وكأن الله رزقني بكما لتكونا إخوتي وليس صديقاتي فقط.

قلتها لهنَّ ثُم أخذنا نتحدث في أمورٍ شتّى، ثم وصلتُ لمنزلي أولًا، كان منزلي قريب من جامعتي عكس مريم وسلمى، منازلهنَّ تبعد عني قُرابة خمسين دقيقة.

مع سلمى ومريم

"أرايتِ كم هي مميزة عنا! حقًا لا أستطيع تحمُّلها أكثر من ذلك."
قالتها مريم بغيظ شديد، ثم هزت سلمى رأسها بنفاذ صبر وقالت:

- دعينا نتحملها لثلاث سنواتٍ فقط، فهي تُساعدنا بشكلٍ كبير في الدراسة للاختبارات، ثم بعد انتهائنا من الجامعة نفعل بها ما نشاء.

****

لقد أمضيتُ حياتي كُلها في الدفاع عن أشياء لن أحظى بها أبدًا، أجلس الآن وحيدة، بين سطور وثنايا الماضي وخيبات مَن أحببتهم بصدق.
تناسيتُ أمر المصنع أمام منزلي، فذهبتُ مسرعة للحاق بالموعد المُحدد لتسليمِنا لعبوات النسيج.
وصلتُ للمصنع وانتظرتُ قليلًا ثم أتى العامل وأمليتُ عليهِ متطلبات أمي، وبعدها رحل إلى الداخل وانتظرتهُ كثيرًا ولم يعد!
سمعتُ صوت أنين قطة في الأرض المُقابلة للمصنع، فنظرتُ لها بشفقة وشعرتُ وكأنها تتألم من شيءٍ ما، ذهبتُ لأتفحصها ولكني كلمَّا اقتربتُ منها شعرتُ بتنميل شديد بأطراف قدماي وأصابعي، وكأن شيئًا ما يدفعني للأمام بقوة، انبعث ضوءٌ شديد جدًا، من قوتهِ شعرتُ وكأنني عميتُ لدقائق ولكنهم مروا كالسنين.

فتحت عيناي ببطء، وأصابتني رعشة قوية من برودة الطقس، كان الطقس مُختلفًا تمامًا عما كنتُ به ولا أعرف كيف، ورأيت أرضًا كبيرة جدًا مُشابهة لقريتنا مع بعض الاختلافات.

كانت تلك الأرض بها العديد من أشجار النخيل الذابل، والأرض طينية جدًا ليس بها أي نباتات خضراء، والبيوت كانت كما هي ولكن ليست ببهجتها تلك!

رأيتُ منزلي القديم الذي كنا نعيش فيه قبل انفصال أمي وأبي، فدلفتُ إليه بسرعة، ورأيت أبي وهو يتحدث مع أحد بالهاتف ببرود قائلًا:

- اسمعي، الفتاة معكما لا أُريدها أبدًا مهما حدث، فأنا كنتُ على اتفاق مع ابنتكِ التي من المفترض أنها كانت زوجتي، على إنجاب ولد بدلًا من بنت.

شعرتُ حينها وكأن نسلًا حادًا غُرِزَ في قلبي بلا توقف، مضيتُ بالذهاب سريعًا وكأن وحشًا ما يُطاردني.

رأيتُ سلمى ومريم وهما في طريقهن لمنازلهم، وكانتا تتسامران بالضحك والحديث عني فقالت مريم بغيظ شديد:

- أرايتِ كم هي مميزة عنا! حقًا لا أستطيع تحمُّلها أكثر من ذالك.

ثم أيدتها سلمى بنفاذ صبر قائلة:

- دعينا نتحملها لثلاث سنواتٍ فقط، فهي تُساعدنا بشكلٍ كبير في الدراسة للاختبارات، ثم بعد انتهائنا من الجامعة نفعل بها ما نشاء.

ورأيتُ مُعلمتي وهي تقارنني بأبنائِها في محاولةٍ منها لحثهم على النجاح، وركضتُ بخوف لأرىٰ أمي، فرأيتها وهي تدعي ربها بسعة رزقي وتفوقي.
وفجأة شعرتُ بشيءٍ ما يدفعني بقوة للخروج خارج تلك الأرض، مرّت دقائق معدودة مع انبعاث نفس الضوء الشديد وارتجاف جسدي، وتنميل أطراف قدماي وأصابعي، شعرتُ بشيءٍ ما يُمسك بيدي بقوة ويكتُب عليها بنصلٍ ساخن وحاد أيضًا، ثم رأيتُ نفسي أمام المصنع في حالة يُرثى لها، فكانت عيناي حمراء وبشدة.

أكملتُ سيري بتيهٍ شديد، ونظرتُ ليدي وكأنها قد طُبع عليها ختم غريب ومخيف بشدة، كلام أبي وصديقاتي ومعلمتي يتردد بأذني، لا أعلم إلى أين تأخذني قدمي، ورفعتُ رأسي نحو السماء مرددة بقلب مُرتجف وعينان تُمطر منهما الدموع كالشلالات بلا توقف:

- يا الله، تمنيتُ لو تُخالفني الأقدار ولو لمرة واحدة، يارب لا يستطيع عقلي استيعاب بشاعة من حولي، لا أستطيع.

عدتُ لمنزلي والعرقُ يتصبب من جسدي، ومن كل جزءٍ في وجهي، رأتني أمي فصرخت بفزعٍ من منظري:

- ما بكِ ماذا حدث.

ثم أغشي عليّ بين يديها.

كان جسدي يرتجف بقوة أثناء نومي، وكان ذلك اليوم يُطاردني باستمرار في أحلامي وواقعي، وذلك الخاتم الذي بيدي كنت أخفيه عن الجميع، فكل ما رأيتهُ كان يُفقد العقل والقلب، وتلك الأرض لا أستطيع وصفها سوى بأنها "أرض النوايا".

****

تختلف السيناريوهات والنتيجة تكون واحدة.. مرة عند خيبة آمالك فتُهزم كل توقعاتك، وتقذف روحك لرياح الألم بلا إرشاد، والأخرى عند تحمُّل تعبك النفسي ومحاولاتك في عدم إظهاره، فأنتَ لا تملك رفاهية الانهيار لإظهاره، تضطر أن تأخذ بنفسك بعيدًا عن البشر، ومن بعدها تدمن عادة التحديق في اللا شيء.

اقتحمت أمي غرفتي بنفاذ صبر وحزن قائلة:

- إلى متى ستبقين مُنعزلة هكذا؟ إلى متى ستظلين صامتة وعيناكِ لا تتوقف عن الحديث؟ ما بكِ أخبريني أنا حقًا أشعُر وكأنكِ وكأنكِ..

ثم صمتت لفترة ونظرت لعينَي وتابعت بقلق جلي على ملامحها:

- وكأنك واقعة بكارثة، قلبي يُخبرني بذلك.

قلتُ لها في نفسي:

- أتعلمين ذلك الشعور بأنكِ لا تستطيعين سماع أي شيء سوى أنين قلبكِ؟ وأنه لم يعُد قادرًا على الاستمرار؟ أتعلمين الشعور بأنكِ تائهة بين خوفك وغضبك وتساؤولاتكِ التي لا تنتهي.

ثم اكتفيتُ بقول:

- أمي، أنا بخير، لا تُكثري من قلقك عليّ.

لم تقتنع أمي بكلامي واستمرت في الحديث، كان عقلي في عالم آخر، عالم مليء بالنفاق.

****

مرت أيام عزلتي وابتعادي عن الجميع وكان ونيسي الأول والأخير هو "القرآن الكريم" فالحمدُللّٰه الذي اصطفاني لحفظه كما تمنيتُ مُنذُ صغري، لا أخفي عليكم سرًا فهذا ساعدني بشكل كبير في تخطي ما لم أحسبه هينًا أبدًا.

حاولتُ الرجوع لحياتي الطبيعية ولكني كُلَّما نظرتُ لأي شخص يأتي ببالي سؤالًا واحدًا "هل أنت مُنافق أم لا"، وأصبحتُ أُجيد ذلك من نظرة واحدة.

****

بدأ فصل الجامعات والمدارس بالاستعداد لانضمام أبنائها إليها، وعدتُ للمداومة وتعمدتُ البُعد عن التجمُعات البشرية. وبعد مرور ذلك اليوم بأيام أخرى، دخل علينا أستاذ مادة التحليل الكيميائي، وأملى على طلابه محتويات المادة كالعادة، ولكني ولأول مرة ألاحظ بيده ذلك الختم الغريب الذي لاحقني بعد عودتي من تلك الأرض!

حدَّقتُ بيديه بصدمة، ثم تقابلت عيناي بعينيه فقال:

..

يتبع..